بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة وسلوك الإنسان

تأليف

ديريك بيكرتون

ترجمة

الدكتور محمد زياد كبة

أستاذ - قسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب

جامعة الملك سعود

النشر العلمي والمطابع - جامعة الملك سعود

ص.ب ٦٨٩٥٣ - الرياض ١١٥٣٧ - المملكة العربية السعودية

ⓒ جامعة الملك سعود، ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م)

هذه ترجمة عربية مصرح بها لكتاب :

This translation of:
Language and Human Behaviour
By: Derek Bickerton
Copyright 1995 by the University of Washington Press.
Translation copyright 2001 by: King Saud University
All rights reserved

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بيكرتون، ديريك
اللغة وسلوك الإنسان/ ترجمة محمد زياد كبه - الرياض.
٢٤٦ ص ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ٢-٢٠٢-٣٧-٩٩٦٠
١- علم النفس اللغوي ٢- السلوك أ- كبه ، محمد زياد (مترجم)
ب- العنوان
ديوي ١٩ , ٤٠٠ ٢١/٤٣٤٢

رقم الإيداع : ٢١/٤٣٤٢
ردمك: ٢-٢٠٢-٣٧-٩٩٦٠

حكمت هذا الكتاب لجنة متخصصة، شكلها المجلس العلمي بالجامعة، وقد وافق المجلس على نشره - بعد اطلاعه على تقارير المحكمين - في اجتماعه الرابع عشر للعام الدراسي ١٤٢٠/١٤٢١ هـ المعقود في تاريخ ١٤٢٠/١١/٧ هـ الموافق ٢٠٠٠/٢/١٣ م.

إدارة النشر العلمي والمطابع ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

مكتبة جامعة الملك سعود
الرقم العام :- د ٦٠٠٥٦٩
مكتبة :- م
رقم العهدة :- ٧٧٦٥٦١

مقدمة المترجم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد:

لم يعد علم اللسانيات الحديثة يقتصر على الفروع الثلاثة المعروفة التي بدأ بها، وهي: النحو والصوتيات والدلالة، بل امتدت فروعه في العقدين الأخيرين إلى ميادين جديدة كثيرة مثل اللسانيات النفسية والعصبية والاجتماعية والعرقية وغيرها. ولطالما اتجهت أنظار اللسانيين إلى علم البيولوجيا آملين بأن يحمل في طياته ما يكشف أسرار اللغة ويميط اللثام عن خباياها التي ما زالت مجهولة حتى الآن. فقد توقع جفري سامسون (Geoffrey Sampson 1981) أن تكون اللسانيات القادمة لسانيات حيوية، وهاهي توقعاته تتحقق بعد عقدين من الزمن تقريبا.

وترجع العلاقة بين علم الأعصاب (Neurology) واللسانيات إلى الارتباط الوثيق بين اللغة بوصفها شكلا من أشكال السلوك الإنساني وبين الدماغ الذي يسيطر على السلوك والتفكير بجميع أشكاله. فتطور علم اللسانيات إذن أضحى رهنا بتطور علم الأعصاب. ولم يعد خافيا على أحد الخاصية المزدوجة للغة التي تنبثق من ملاحظة شكلها المحسوس (كظاهرة صوتية) ومن جانبها الدلالي غير المحسوس الذي يتعلق بتشكيل الرسائل في الدماغ قبل نطقها وفهمها عند سماعها. وطبيعي أن يكون الجانب المحسوس أسهل دراسة ووصفا من الجانب الغامض المجهول وهو الجانب الدلالي.

وهذا الكتاب الذي أضع ترجمته بين يدي القراء الآن، على صغر حجمه، يطرح قضايا في غاية الأهمية في علم اللسانيات العصبية. فالمؤلف ديريك بيكرتون يعالج العلاقة بين اللغة والتفكير، ويحاول الإجابة عن سؤال طالما حير كثيرا من

اللسانيين وهو "هل اللغة ضرورية فعلا للتفكير؟" كما يعالج قضية مهمة أخرى تتعلق بالوعي عند الإنسان؛ فيعرف الوعي ويصنفه في مستويات ثلاثة لكل منها دور معين في مساعدة الإنسان على البقاء والحفاظ على توازنه الداخلي (Homeostasis) على حد ادعائه.

ويطرح بيكرتون تصورا لنشأة اللغة في العصور السحيقة، ويناقش عددا من النظريات في هذا المجال وكيف تطورت اللغة الأولى (Protolanguage)، إلى شكلها الحالي اليوم. ويتساءل بيكرتون كذلك عن العلاقة بين حجم دماغ الإنسان وذكائه، وعما إذا كان لكبر حجم الدماغ أية علاقة بتطور اللغة وظهور النحو قبل آلاف السنين. كما يقارن اللغة الأولى بلغة الأطفال دون الثانية من العمر وباللغات الهجين (الخليط) (Creols) التي تظهر نتيجة لتمازج اللغات بعضها ببعض؛ كما يحدث في بعض المجتمعات التي تضم شعوبا من أصول عرقية مختلفة.

ومن النقاط المهمة في كتاب بيكرتون هذا معالجته للتفكير والوعي. فهو يقول إن للتفكير مستويين: الأول موصول والثاني مفصول. فالتفكير الموصول هو الذي يرتبط بالبيئة المحيطة بالفرد ارتباطا مباشرا ويتفاعل مع ما يراه ويسمعه ويدركه من خلال حواسه. وهذا التفكير ضروري للبقاء على قيد الحياة لأنه يسمح للفرد بتجنب الأخطار والتعامل مع البيئة حسب ما تمليه الظروف. وأما التفكير المفصول فهو التفكير الذي لا يتحفز من خلال الحواس بل يشتغل من تلقاء نفسه، ولا علاقة له باللحظة الحالية التي يعيشها الفرد. وهذا النوع من التفكير ضروري لتقدم المعرفة الإنسانية والحضارة؛ لأنه ينتج المخترعات ويدفع بذلك عجلة التقدم.

ويستنتج بيكرتون أن الإنسان يشترك مع غيره من المخلوقات بالتفكير الموصول الذي هو على اتصال مباشر بما يحيط به في اللحظة الحالية. وأعتقد أن بيكرتون على صواب في قوله هذا؛ لأن الحيوانات، على النقيض من الإنسان، لا تفكر إلا فيما تلتقطه من خلال حواسها، وبما هو ضروري لبقائها على قيد الحياة.

وقد يرى كثير من القراء (بمن فيهم المترجم) في الكتاب أفكارا لا تروق لهم أو أفكارا تحتمل الجدل. لكن هذا بالطبع يجب ألا يقف عائقا أمام التعرف على أفكار الآخرين وربما الرد عليهم، لا سيما عندما يتعلق الأمر بموضوع حساس مثل اللغة مهما كانت وجهة نظر القارئ من نشوء اللغة، وبصرف النظر عن اتجاهاته الفكرية. ومهما كانت وجهة نظر القارئ من نشوء اللغة، ومهما كانت اتجاهاته الفكرية. فنظرية التطور التي قال بها داروين (Darwin) مثلا لم تلق القبول لدى الكثيرين من

العلماء، لكن تناولها المعارضون والمؤيدون على حد سواء بالدراسة والتمحيص. وأجدني أتفق مع المؤلف في نقطة مهمة وهي أن اللغة لم تظهر بشكل تدريجي بل ظهرت دفعة واحدة كنظام تمثيلي منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض.

وأحب في هذا المقام أن ألفت انتباه القارئ إلى بعض الأمور الخاصة بلغة الكتاب الأصل. فالمؤلف يستخدم لغة أقرب إلى لغة الحديث الدارج أحيانا، ولغة علمية معقدة أحيانا أخرى، كما تزخر كتابته بتعابير معترضة وأقواس يعج بها النص. لكن لغة الكتاب تنم عن سعة اطلاع المؤلف على علم الأعصاب وعلم النفس بالإضافة إلى اللسانيات بالطبع. كل هذا جعل من عملي كمترجم تحديا بالغ الصعوبة. فقد استعصت بعض التعبيرات على الترجمة بشكل واضح؛ حتى زملائي الذين قصدتهم طلبا للمساعدة (وأشكرهم على جهودهم بالطبع) لم يستقروا على رأي واحد بالنسبة لترجمة عدد من المصطلحات الجديدة. لذلك أستميح القارئ عذرا إن وجد بعض الخلل في ترجمة هذه المصطلحات، وسأكون شاكرا لكل من يتقدم باقتراحات جديدة تساعدني مستقبلا في سد هذا الخلل.

وقد اضطررت في بعض الحالات إلى استبدال الأمثلة الأصلية بأخرى من العربية لتكون أقرب إلى القارئ وذلك توخيا لسهولة الإيضاح مع أنني أشرت إلى تلك المواقع بعلامة(☆).كما أنني لم أترجم النماذج التي ذكرها المؤلف في ملاحق الكتاب من اللغة الأولى وهي مأخوذة من لغة هاواي الخليط ولغة الأطفال دون الثانية من العمر ومن لغة القرود لعدم جدوى ترجمتها. فقيمة الأمثلة تبقى في لغتها الأصلية.

وأخيرا آمل أن أكون قد وفقت في تقديم كتاب مهم جديد في علم اللسانيات العصبية يسهم في إطلاع القارئ العربي على مستجدات هذا العلم الشائق الذي قفز إلى مركز الصدارة بين صنوف اللسانيات الحديثة.

ولا يفوتني في هذا المجال أن أتقدم بجزيل الشكر إلى المسؤولين في مركز الترجمة بجامعة الملك سعود وفي إدارة النشر والمطابع الذين وافقوا مشكورين على نشر ترجمتي هذه وإلى كل من أسهم في إخراجها في شكلها الحالي.

والله من وراء القصد.

محمد زياد يحيى كبة

كلمة الناشر

في شهر أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٦١م تبرع جون دانز وزوجته جيسي، وهما من وجهاء سياتل، بمبلغ كبير إلى جامعة واشنطن من أجل إقامة صندوق دائم يخصص ريعه لدعوة عدد من مشاهير العلماء المتميزين على الصعيدين المحلي والدولي والمهتمين بأثر العلوم والفلسفة في إدراك الإنسان للكون *العقلاني*. وقد أطلق على الصندوق الذي أسسه جون وجيسي دانز اسم "صندوق جيسي وجون دانز" كما يعرف المفكرون الذين تدعوهم الجامعة بموجبه باسم "محاضرو جيسي وجون دانز" أيضا.

وكان من حكمة دانز أن عهد إلى مجلس جامعة واشنطن بمهمة اختيار ميادين العلوم والفلسفة والعلوم الأخرى التي يتصدى لها من توجه لهم الدعوة من الأساتذة الزائرين؛ لأن اهتمامه كان منحصرا في تمكين الجامعة من دعوة كبار العلماء والمفكرين في العالم إلى إلقاء المحاضرات فيها.

ورغبة من دانز في زيادة الفائدة من دعوة المحاضرين والأساتذة فقد منح مجلس الجامعة سلطة تخصيص جزء من دخل الصندوق لشراء مجموعة خاصة من الكتب والوثائق والمواد الضرورية العلمية الأخرى. كما نصت بنود التبرع على نشر وتوزيع المحاضرات التي يلقيها محاضرو جيسي وجون دانز إن كان هذا ملائما.

ومن خلال هذا الكتاب يطل محاضر آخر من محاضري جيسي وجون دانز ليتحدث إلى القراء وإلى مفكري العالم مثلما تحدث إلى مستمعيه في جامعة واشنطن وفي جمعية "باسيفيك نورث وست" (Pacific Northwest).

كلمة شكر

أود أن أعـرب عـن عميـق شـكري وامتنـاني إلى فريدريـك ج. نيـو مـاير (Frederic J. Newmeyer) وإلى لجنة محاضرات جيسي وجون دانز مـن جامعـة واشنطن لإتاحتهم لي فرصة إلقاء ثـلاث محاضرات عامة في سياتل في شهر أكتوبر / تشرين أول ١٩٩٢ ولتشجيعي على توسعة هذه المحاضرات وطبعها في الكتاب الحالي.

كما أود أن أعبر عن عميق تقديري للدعـم المستمر الـذي لقيتـه مـن قسـم اللسانيات ومن معهد البحوث العلمية الاجتماعية التابع لجامعـة هـاواي الـذي مكنني من المضي قدما في أبحاثي بأقل قدر ممكن من الأعباء الأخرى.

وأحـب أن أتقـدم بالشـكر والعرفـان بشكـل خـاص إلى وليـم كالفـن (William Calvin) ونـوم تشومسـكي (Noam Chomsky) ودانييـل دينيـت (Daniel Dennett) وستيفن بينكر (Steven Pinker) لقراءتـهم بعـض أجـزاء مسودة الكتاب وتعليقهم عليها. كما أتوجه بجزيل الشكر إلى ثلاثة من المراجعين رأوا عـدم ذكـر أسمائـهم، وأنـا أعـرف واحـدا منـهم وهـو ري جـاكنـدوف (Ray Jackendoff)، لتعليقهم على المسودة كاملة، فقد كانت ملاحظاتهم قيمة إلى أبعد الحدود وعونا لي في تقديم كتاب أفضل. أما في المواضع الـتي لم آخذ فيها بنصائحهم القيمة فإني أتحمل المسؤولية وحدي.

ولست أجد من الكلمات ما يكفي للتعبير عن مدى امتناني لزوجتي إيفون على إسهامها في هذا العمل ولذلك فلن أقول عنها شيئا.

المؤلف

مقدمة المؤلف

كانت نواة هذا الكتاب ثلاث محاضرات عامة ألقيتها في جامعة واشنطن تحت رعاية صندوق جيسي وجون دانز. وكان الدافع الأول لدى جون دانز ممول الصندوق ومؤسسه في مستهل ما يعرف الآن باسم "سلسلة محاضرات دانـز" رغبته في دعـوة العلماء من المهتمين بأثر العلوم والفلسفة في إدراك الإنسان للكـون العقلانـي إلى إلقاء المحاضرات في الجامعة. ولكن ترى ما الذي كان يرمي إليه دانز في عبارته "الكـون العقلاني"؟ لقد كان كل ما يعنيه بالتأكيد هو ذلك الكون الذي يخضع لمجموعة من القوانين الشاملة التي تنطبق على ميادين واسعة لا مكان فيها لعامل الصدفة إذا استطعنا العثور على المستوى المجرد الملائم.

وما أكثر هذه الافتراضات في العلوم الفيزيائية! فهي كالبدهيات لا حاجة بنا لذكرها، والعلم لا يمكن أن يقوم إلا عليها. أما في العلوم السلوكية فإننا لا نطرح مثل هذه الافتراضات، أو بالأحرى لا نتمسك بها على الدوام. فعندما يدرس بنو البشر أنفسهم فإنهم يخضعون إلى قوانين خاصة تختلف عن غيرها من القوانين التي تحكم أشكال المادة.

وأظن أن جون دانز ما كان ليقبل بمثل هذا الرأي؛ ومع أني أراه محقا في ذلك إلى أبعد الحدود، إلا أنه لا بد من الاعتراف بعجز العلوم التي حاولت وصف سلوك الإنسان وصفا عقلانيا عن مجاراة المنجزات التي حققتها العلوم الفيزيائية التي لم تقدم لنا نظرات عميقة داخل طبيعة المادة وحسب، بل بلغت بها الجرأة أن حاولت تفسير وجود المادة؛ مما مكنها من إحراز قصب السبق على الأدب في وصف الكـون المادي. وبرغم الجهود الحثيثة التي بذلتها العلوم السلوكية فإننا ما زلنا حتى اليوم نجهل من نحن ومن أين أتينا وماذا حققنا ولماذا، كما جاء في كلمات اقتبسها أحد محاضري جون

دانز السابقين (Alexander, 1979 : ix). فلو أردنا أن نأخذ فكرة بسيطة عن الطبيعة الإنسانية لوجدنا أن الفائدة التي نجنيها من أعمال شكسبير (Shakespeare) وإسخيلوس (Aeschylus) وجويس (Joyce) ودستويفسكي (Dostoyevsky) أكبر بكثير مما قدمه لنا العلماء السلوكيون حتى يومنا هذا !

وثمة بعد ملموس لهذه المفارقة. فعلى الرغم من ضعف الرابطة على ما يبدو بين المفاهيم النظرية والمنجزات العلمية، إلا أن هذه المنجزات تولد إحساسا بالثقة بأن النظريات التي وراءها تسير في الاتجاه الصحيح. وفي العلوم دعم كبير لهذا: فبفضل المكتشفات العلمية نستطيع إجراء الاتصالات الفورية مع جميع أنحاء العالم والدوران حول الكرة الأرضية في ساعات، ليس هذا وحسب، بل ونستطيع أيضا أن نغادر كوكب الأرض بأكمله لفترات تتزايد باستمرار.

ولكن ما أقل المنجزات السلوكية إزاء هذه المنجزات العلمية الهائلة ! وحسبنا هماً اعترافنا بأن معظم مشكلات السلوك الإنساني ما زالت بانتظار الحل بالرغم من كثرة الحلول المطروحة. والأدهى من هذا وذاك أننا نعترف بأن كثيرا من هذه المشكلات لا تتقدم نحو الأفضل، بل تزداد تعقيدا يوما بعد يوم. صحيح أن قدرتنا على السيطرة على عالم المادة تنمو باطراد، إلا أن قدرتنا على السيطرة على أنفسنا تتقهقر يوما بعد يوم. فعلماء الاقتصاد عاجزون عن توقع الكساد الاقتصادي، وعلماء الاجتماع عاجزون عن تفسير تعاظم الجريمة وتفشي المخدرات، كما أن علماء النفس ليسوا أقدر على شفاء المرضى من الزمن. كذلك نرى أن موجات المجاعات مستمرة، ومآسي الفاقة والعوز والظلم والعنف ما فتئت تتكرر وتتفاقم بدلا من أن تتراجع بالرغم من الادعاءات بأن "نهاية التاريخ" باتت قريبة.

وبالطبع فإن لهذه الظواهر ما يبررها باستمرار. فالعلوم الفيزيائية سبقت العلوم السلوكية بوقت طويل (ولكن هذه النقطة ليست بذات بال؛ لأن معظم العلماء ما زالوا على قيد الحياة)، كما أن دراسة بني البشر أصعب من دراسة المادة. (لكن الدليل الملموس الوحيد على هذا هو بالتحديد الإخفاق في التوصل إلى نتائج تكون بمثابة المعلومات التي نريد تفسيرها !) وأول المبررات بلا منازع هو النظر إلى بني البشر على أنهم أشياء خاصة تستعصي على الفهم بطبيعتها ولا تخضع للقوانين التي تحكم

الأشياء الأخرى. فالثقافة الإنسانية، كما يقال أحيانا، حررتنا من القيود البيولوجية، ومنحتنا ملء الحرية بأن نصبح فوق مستوى البشر إن شئنا ذلك (Stenger, 1988). فلنا أن نفعل أي شيء وكل شيء سوى أن نفسر ما نحن، ولماذا نحن على ما نحن عليه؛ لأن هذا يستعصي على التفسير؛ فما نحن هو بكل بساطة ما نختار أن نكون. لكن الذين يؤكدون لنا هذه الآراء نادرا ما يخلصون إلى نتيجة واضحة مفادها أنهم إذا كانوا على صواب لوجدنا أنفسنا أمام مفارقة عجيبة تتمثل في أن ما يسمى بالمخلوقات العقلانية هي العنصر الوحيد الذي لا يخضع للعقل في عالم يبدو كل ما فيه عقلانيا![1].

ولا عجب إذا رأينا بعضهم يلوذ بالطرف الآخر مدعيا أن القوانين التي تنطبق على أنواع المخلوقات كافة تنطبق بدورها على سلوك الإنسان. ولم يتوخ علماء الاجتماع جانب الحذر في تنبؤاتهم، وهم الرواد في هذا المجال، إزاء ما يمكن أن تتمخض عنه مثل هذه الأساليب. فعلى حد تعبير إدوارد ويلسون (Wilson,1975 :574-75) فإن "علم الأحياء - البيولوجيا - بحلول نهاية القرن الحادي والعشرين سيبلغ ذروته مع سير العلوم حثيثا نحو تحقيق النضج في الميادين الاجتماعية ... فعلم البيولوجيا العصبية الجديد (Neurobiology) وبعد تفوقه على علم النفس، سوف يتمخض عن مجموعة قوية من مبادىء علم الاجتماع .... أما حلم سكينر (Skinner) بثقافة مسبقة التصميم تسعى إلى تحقيق السعادة فعليه انتظار علم البيولوجيا العصبية الجديد". فالبرنامج الاجتماعي لدراسة سلوك الإنسان يشمل أساسا البحث في الثوابت البيولوجية التي تحكم عالم الحيوان بصفة عامة، وبيان كيفية استمرار هذه الثوابت في الظهور عند بني البشر على الرغم من تأثيرات الثقافة التي تكاد تطمس معالمها ثم في إيضاح الأسس العصبية لأنماط السلوك التي تتمخض عنها. وكما جاء في محاولة جرت مؤخرا لتنفيذ هذا البرنامج (Ridley, 1993:4) فإنه "لا شيء في طبيعتنا لم ينتخب بعناية ... تبعا لقدرته على الإسهام في النجاح الذي تحقق في النهاية."

ولن نجانب الحق إذا قلنا إن هذا الأسلوب يوافينا بكل ما نريد معرفته عن الجوانب التافهة من السلوك الإنساني فقط. غير أن أكثر جوانب السلوك الإنساني إثارة للاهتمام (وبالتأكيد الجانب الأساس إن شئنا فهم طبيعتنا الحقيقية، وعلاقتنا

بالطبيعة ككل) هو بالتحديد ذلك الجزء الذي لا تشاركنا فيه المخلوقات الأخرى. وبالفعل فإن لب مشكلة الإنسان بأكملها يكمن في المفارقة التالية: إن بني البشر نوع كسائر أنواع المخلوقات ظهر نتيجة للتطور البيولوجي الطبيعي، ومع ذلك فإن سلوكهم يختلف اختلافا جذريا عن سلوك باقي الأنواع في العديد من المجالات.

ولطالما أنكرت بعض الأوساط هذا القول مدعية أن بني البشر ليسوا سوى نوع كسائر أنواع المخلوقات، وأن كون الإنسان فريدا ما هو إلا انعكاس لكون جميع الأنواع الأخرى فريدة أيضا.[٢] ولكن هذه المواقف المتواضعة تحظى بالقبول لدى مقابلتها بالتعبيرات الرنانة مثل "تاج المخلوقات" و "سيد الكون" التي ذاعت في بداية القرن (مع أنها لم تختف تماما). وبالفعل فإن النظر إلى الإنسان على أنه "مجرد نوع آخر من المخلوقات" هو رد فعل منطقي على هذه التعبيرات الرنانة بالتحديد. وسرعان ما يخبو بريق هذا القول عند التفكير في المحنة التي تكابدها الطبيعة في الوقت الراهن. فأي "نوع فريد" هذا الذي أتلف البيئة في الأرض، ويهدد بإتلاف ٢٥ - ٣٠٪ من أنواع الكائنات الموجودة خلال العقود القليلة القادمة إن ترك له الحبل على الغارب؟ (Wilson,1992). وأي "نوع فريد" هذا الذي يهم بتلويث الكواكب الأخرى بعيوبه الفريدة؟ لقد أوتي بنو البشر من القوة، سواء أكانت هذه القوة نعمة أم نقمة (وبإمكانك أن تستنتج أنها الثانية) ما يفوق غيرهم من المخلوقات أضعافا مضاعفة، لكن قوة البشر هذه تختلف اختلافا نوعيا عن غيرها؛ لأنه لم يسبق لها مثيل في تاريخ تطور الأرض. من هنا نرى أن التمسك بادعائنا بأننا مجرد نوع آخر من المخلوقات في هذه الظروف ليس نفاقا فحسب، بل هو ادعاء غير مسؤول أيضا.

إن كل من يقول إننا مجرد نوع آخر من المخلوقات يغفل المدى الواسع الذي يميز سلوك الإنسان وقوته. فمجالات السلوك عند المخلوقات الأخرى تنحصر تقريبا في البحث عن الطعام والتوالد والعناية بالصغار وحمايتهم ومقاومة الحيوانات المفترسة الأخرى والاعتناء بالبدن وقتال المنافسين واكتشاف منطقة السيطرة والدفاع عنها وفي اللهو العشوائي. أما الإنسان فبالإضافة إلى قيامه بكل تلك الأمور بالطبع، إلا أنه يجري العمليات الحسابية، ويمارس الرقص والتجارة، ويبني السفن، ويلعب الشطرنج، وينجز مخترعات جديدة، ويقود العربات، ويرفع الدعاوى أمام المحاكم،

ويعبر بالرسم ويقوم بأشياء أخرى تكاد تفوق الحصر لم يسبق أن قام بها نوع غيره من المخلوقات. فكل نظرية تهدف إلى وصف الإنسان لا بد لها من أن تفسر السبب في ضيق مجالات السلوك عند جميع المخلوقات الأخرى، إن جاز لنا التعبير، وأن نوعا واحدا فقط يمارس سلوكا واسع النطاق على هذا النحو. فنحن لا نرى سلسلة متصلة من أنماط السلوك تتدرج شيئا فشيئا تبدأ بالمتحول (الأميب) وتنتهي بالإنسان. فلمَ لا تبني جماعات الشيمبانزي السفن مثلا؟ ولمَ لا تمارس قرود الأورانجوتان الرقص؟

وليس ثمة نظرية عن سلوك الإنسان تستطيع في الوقت الحالي أن تفسر هذه الأمور الغريبة. فحتى عندما نتعرف على الأشياء التي تميزنا عن بقية الأنواع فإننا نطلق عليها تسميات جديدة بدلا من أن نفسرها. وكثيرا ما يقال إن السمات التي تميزنا هي نتاج ذكائنا الفائق وقدراتنا المعرفية الفريدة ووعينا وتعقيد أدمغتنا وهكذا. لكن هذا القول يشبه قولنا "إن الكأس مليئة بالماء لأن فيها كثيرا من مزيج الهيدروجين والأكسجين!" فمن أين أتانا هذا الذكاء؟ وكيف وصلنا إلى هذه الدرجة من الوعي؟ وما الذي جعل أدمغتنا على هذا النحو من التعقيد؟ ولماذا يمنحنا هذا التعقيد الوعي والذكاء والقوى التي لا مثيل لها للسيطرة على الطبيعة؟ ولماذا يختلف سلوكنا عن سلوك بقية الأنواع هذا الاختلاف الشاسع؟ إننا بلا شك عاجزون عن الإجابة عن كثير من هذه التساؤلات، ولا نملك فهما للعوامل الجوهرية التي تجعل الإنسان إنسانا!

ولنفترض جدلا أن هذا العجز في العلوم السلوكية لا يرجع إلى قصر الفترة الزمنية التي تطورت خلالها تلك العلوم، ولا إلى صعوبة المشكلة التي تواجهها، ولا إلى خروج الطبيعة الإنسانية عن القوانين الفيزيائية لعلة كامنة فيها، ولا إلى أي سبب آخر مما أتينا على ذكره حتى الآن؛ ولنفترض أيضا أن العلوم السلوكية أخفقت في تحقيق أهدافها لا لشيء، إلا لأنها بدأت بداية خاطئة، ولأنها ولدت انطباعات خاطئة. ولنفترض أيضا أن ميزة بعينها من مميزات الإنسان تبين أنها أصل معظم المميزات الأخرى أو كلها، وهي التي تميزنا عن أقرب المخلوقات إلينا وهي القرود؛ فلو كان الأمر كذلك حقا لاتضحت لنا أسباب الارتباك الذي أشرت إليه ولأخفقنا في العثور على تفسير ملائم لنوعنا لمجرد أننا حاولنا أن نفحص كل صفة من الصفات

التي تميز ذلك النوع، كما لو كانت سمات منفصلة لا صلة بينها على الإطلاق بدلا من كونها نتائج منطقية لقدرة هائلة واحدة تهيمن على جميع تلك الصفات.

يقدم هذا الكتاب اللغة باعتبارها مثالا على هذه القدرة. فالفصل الأول يبحث في اللغة وخصائصها المحددة، ومن ثم يميز هذه الخصائص عن أشكال التواصل الأخرى مشيرا إلى مصادرها الممكنة أكثر من غيرها. ويعالج الفصل الثاني كيف تطور الاستعداد اللغوي باعتباره الناتج النهائي لاستعدادات كامنة لدى ما يعرف أحيانا بالمخلوقات "الأكثر تقدماً" وكيف شكلت اللغة، بفضل طبيعة تطورها، الأساس الذي قامت عليه القدرات العقلية اللاحقة (أو الأساس الذي أوجب ظهور تلك القدرات). وأما الفصل الثالث فيشير إلى أن الخصائص التي ينفرد بها الذكاء البشري مستمدة مباشرة من امتلاك الإنسان للمقدرة اللغوية. وأخيرا يشير الفصل الرابع إلى احتمال نشوء الوعي من مصدر مماثل.

ومن الطبيعي أن يقابل بعض الناس برنامجا من هذا النوع بالمعارضة تارة وبالرفض تارة أخرى باعتباره برنامجا اختزاليا (Reductionist) متناسين أن معظم التحسينات التي طرأت على فهم طبيعتنا لم تتحقق إلا من خلال شكل من أشكال المذهب الاختزالي. غير أن الاختزالية أصبحت كلمة مستهجنة لدى الحديث عن النوع الإنساني. إن مثلنا مثل مريض ثري في عيادة طبيب نفساني بمدينة فيينا في مطلع القرن العشرين(☆) تملؤنا الخيلاء حين نفكر بأننا بالفعل مخلوقات بالغة التعقيد تكتنفنا طبقة تلو أخرى من الغموض المثير؛ غموض يحتاج إلى كثير من الصبر لكي ينجلي بسبب الصمت الرهيب الذي يفرضه علينا غرورنا.

وربما أوجس بعض الناس مخافة أن يؤدي اختزال صفاتنا في صفة واحدة إلى الانتقاص من قدرنا، أو إلى تبرير التشدد في احتقار بني البشر وإنجازاتهم أكثر مما رأيناه حتى الآن. فبادىء ذي بدء لو كنا مجرد قرود تمكنت من الكلام بمحض الصدفة فما قيمة منجزاتنا؟ وما هو الثمن الموضوعي لحياة كل إنسان على حدة؟ لكن هذه المخاوف، إن وجدت فعلا، فهي ليست بالتأكيد في محلها الصحيح. فالمفاهيم التي شاعت في القرون الماضية عن تفوق الإنسان لم تمنع القضاء على اليهود والغجر في

ألمانيا، وعلى الكولاك في الاتحاد السوفييتي (السابق)(*) وعلى الشعوب الأصلية في الأمريكيتين وفي أماكن أخرى من العالم. وبالفعل فإن كل من يتأمل ظروف العالم اليوم قد يراوده الشك فيما إذا كان أي تغيير في معتقداتنا الخاصة بشأن أنفسنا يمكن أن يزيد الأمور سوءا أكثر مما هو عليه الآن!

إن الحقبة التي عاصرت أشد العقائد تضخيما لتفوق الإنسان هي الحقبة عينها التي شهدت أفظع الجرائم بحق الإنسانية. فقوة الصدمة الناجمة عن هذه المصادفة تدفع الواحد منا إلى طرح فكرة مناقضة تماما تبين أن المفهوم المضخم لطبيعة الإنسان هو بعينه الذي أجاز تلك الجرائم. فذريعة المجرمين كانت ترتكز على الدوام إلى ادعائهم أنهم الورثة الحقيقيون لذلك التراث الإنساني المعجزة، وأن ضحاياهم ليسوا سوى عقبات لا ترقى إلى مستوى البشر كانت تقف حجر عثرة تحول بينهم وبين أهدافهم! وعسى أن يؤدي شيء من التواضع إلى تحسين معاملتنا لبني البشر (ناهيك عن الأنواع الأخرى) بدلا من زيادتها سوءا. وعسى أن يختفي شعورنا بهذه العظمة الجوفاء القاتلة إذا أدركنا بأننا جميعا نحتل ذات المنزلة الوضيعة التي لا يفصلها عن منزلة الشيمبانزي سوى خطوة صغيرة.

ويعزو بعضهم ما يبدو للوهلة الأولى أنه اعتراض منطقي على البرنامج المقترح في هذا المقام إلى اعتقاد سائد اليوم في أوساط العلوم السلوكية يرى أن اللغة ما هي إلا وسيلة للتواصل، وأنها واحدة من المهارات العديدة التي استطعنا امتلاكها بفضل أدمغتنا. ولشدة رسوخ هذا المفهوم الخاطىء، ولقلة من تصدى له من اللغويين لتفنيده (مع أن واجبهم يملي عليهم التصدي له في كل جانب) فإننا نرى أنه استحوذ على الكثير من أفضل العقول في العديد من المجالات الفكرية. فعلى سبيل المثال، يجد عالم الأحياء يونج (Young,1978:175) "أن من فادح الخطأ ألا ننظر إلى اللغة الإنسانية نطقا كانت أم كتابة على أنها نظام وظيفي بالدرجة الأولى تطور بهدف التواصل". أما الفيلسوفة باتريشيا تشيرتشلاند (Churchland,1986:388) فتقول "إن اللغة فن اجتماعي، وإن السلوك اللغوي يخدم وظيفة التواصل". وفي السياق ذاته يقول إريك

(*) المترجم

نيول (Newell,1990:441) وهو من كبار المنظرين في علم الحاسوب والذكاء الاصطناعي، "إن اللغة مهارة واضحة .... وهي جديرة بالمعالجة من منظور وظيفي [عندما نضع أنموذجا للمعرفة الإنسانية ـ من دفتر يومياته] ومن السهولة بمكان أن نعرّف وظيفتها الشاملة على أنها وظيفة تواصل". وتتكرر مثل هذه الأقوال إلى حد يثير الغثيان.

ولو نظرنا إلى اللغة على أنها مجرد مهارة تستعمل في إيصال نتاج الفكر الإنساني وفي التعبير عنه لأصبح من المستحيل اعتبارها الحد الفاصل بيننا وبين بقية الأنواع، عندئذ سنجد أنفسنا أمام سيناريو لا مفر منه (وقد أصبح هذا السيناريو محببا لدى العديد من الأجيال في العلوم السلوكية بفضل قوته الظاهرية) وهو ما لخصه نادو (Nadeau,1991:173) حين قال "إن كبر حجم أدمغتنا يعبر عادة عن نجاح النوع الإنساني في التطور ... فقد أصبح حجم الدماغ علامة التطور في تلك الحقبة حين مكنتنا قدراتنا العصبية الفائقة من اختراع الأدوات ... ولعل هومو هابيليس الإنسان القديم مخترع الأدوات (Homo habilis)، كان أول من امتلك نظاما عصبيا فائقا مكنه من اختراع أول العناصر الأساس من عناصر اللغة ... وخلال الفترة الانتقالية التي دامت زهاء مليون عام، والتي تحول فيها هومو هابيليس إلى هومو إركتوس (Homo erectus) الذي يمشي منتصبا على قدميه، تضاعف حجم الدماغ إلى مرتين أو أكثر قبل أن يصبح المركز الرئيس للحس والتفكير".

ويعبر فيليب توبياس (Tobias,1971:xi) وهو أحد علماء تاريخ الإنسان القديم عن ذلك بإيجاز قائلا "إن زيادة حجم الدماغ أدت إلى زيادة في النظام العصبي، وهذا بدوره أدى إلى زيادة في تعقيد الوظائف العصبية وبالتالي إلى ظهور استجابات سلوكية متنوعة ومعقدة أنتجت مظاهر ثقافية تتدعم وتزداد باستمرار." وبعبارة أخرى فإن "الأدوات والصيد والنار والحياة الاجتماعية المعقدة والكلام والطريقة البشرية والدماغ مهدت جميعها لظهور الإنسان القديم" (Washburn,1960).

إلا أن هذا السيناريو وهذه المعادلات ليست مجرد مبالغة في تبسيط الأمور وحسب، بل وتتعارض تماما مع المعلومات التجريبية التي وصلتنا من سجل المستحاثات ذاته ومن المنحوتات الحجرية التي من المفترض أن تكون المصدر الرئيس

لجميع هذه التفسيرات. ومع أن الأمر يبدو غير معقول للوهلة الأولى، إلا أن بعض الحقائق البادية للعيان والمعروفة على أوسع نطاق حول مسار التطور الذي سلكه النوع الإنساني تختلف اختلافا كليا عن هذا التصور. فكيف نفسر الانفصام القائم بين الحقائق والتفسيرات في علم الإنسان القديم (Paleoanthropology)؟ هذا سؤال يطرح مستقبلا على علماء التاريخ، ولن نخوض فيه على هذه الصفحات. أما توثيق وجود هذا الصراع غير المعترف به حتى الآن وطبيعته ومداه فيشكل محور الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ولكن قبل أن نتصدى لهذا الموضوع لا بد من التطرق إلى أمر بالغ الأهمية؛ فهذا كتاب عن اللغة وعن النتائج المنطقية التي تترتب على امتلاكها عند أي نوع من المخلوقات أسعده امتلاكها (أم أتعسه ؟). وليس بوسع هذا الكتاب أن يطمح إلى أن يكون مقنعا لقرائه ما لم يعرّف بالضبط ما هي اللغة (وهذا موضوع كثيرا ما اتهم اللغويون – ولهذا الاتهام ما يبرره – بأنهم يتحاشون الخوض فيه). فإذا لم تكن اللغة مجرد مهارة، ولا مجرد وسيلة للتواصل، فما هي إذن بالضبط؟.

المؤلف

المحتويات

الصفحة

مقدمة المترجم .... هـ

كلمة الناشر .... ط

كلمة شكر .... ك

مقدمة المؤلف........................ م

الفصل الأول: ما هي اللغة؟ ١

الفصل الثاني: اللغة والتطور........................ ٤١

الفصل الثالث: اللغة والذكاء........................ ٩٣

الفصل الرابع: اللغة والوعي ١٣٥

الخاتمة ١٧٥

الهوامش ١٨٣

قائمة المراجع ١٩٩

ثبت المصطلحات:

أولاً: (عربي - إنجليزي)........................ ٢٠٧

ثانياً: (إنجليزي - عربي)........................ ٢١٩

كشاف الموضوعات ٢٣١